

الدلالة النفسية للحركات العمالية

بقلم

زكريا إبراهيم

لسنا نريد — في هذه العجالة القصيرة — أن ندرس الحركات العمالية دراسة علمية مفصلة ، وإنما كل ما نرمي إليه هو أن نعرض بالبحث لما تنطوى عليه هذه الحركات من معنى إنسانى طالما أغفله الباحثون . فالباحثون الذين اهتموا بدراسة مشاكل العمال ، قد ألفوا أن يعالجوا الحركات العمالية كما تعالج المشاكل الاقتصادية . وربما كان السبب فى ذلك ، أن الطبقات الممتازة قد عملت على تصوير الطبقة العاملة بصورة مادية ، كأن القيم الروحية وقفت على الطبقات المالكة ، دون الطبقات العاملة . ومن هنا فقد ساد الظن بأن سائر الحركات العمالية مطبوعة بالطابع المادى الذى تتميز به طبقة العمال ، وأصبحت مشاكل العمال مجرد مشاكل اقتصادية تترتب على مطالب مادية هى صدى لأطباع تلك الطبقة الفقيرة — وهكذا أصبح رجال الأعمال يأخذون على طبقة العمال نزعتها النفعية ، ويسمونهم بالتناقض من جهة أخرى إذا هى اشتغلت بما يعدو حاجتها للغذاء والكساء — وما دامت مطالب العمال — فى نظر الطبقات المالكة — مجرد مطالب مادية لا تتجاوز زيادة الأجور وتوفير أسباب الرفاهية ، فإن المنفعة إذن هى وحدها التى تتحكم فى سائر الحركات العمالية ، والمنفعة وحدها هى أيضاً التى تفسر كل مطالب الطبقة العاملة .

وعلى هذا الأساس ، حاول كثير من أصحاب الأعمال أن يكفلوا للعمال مستوى معقولاً من المعيشة ، حتى يضمّنوا قيام العمل فى هدوء ، بعيداً عن كل حركات ثورية أو اضطرابات دموية . وفى الوقت نفسه حاولوا أيضاً أن يبينوا للعمال أنه لا فائدة من القيام بمثل هذه الحركات ، إذ لا موجب للتضحية بالحياة الإنسانية من أجل الحصول على مزايا يمكن بلوغها بوسائل سلمية — وما دام فى إمكاننا أن نعالج فقر العمال بالمنظّات الخيرية وهيئات الإحسان والرحمة ، فليس ثمة ما يدعو إلى القيام

بأعمال العنف أو حركات الإضراب .

ولكن الخبز ليس هو الخبز دائماً : بل هناك الخبز الذى يمنح شفقة وإحساناً ، وهناك الخبز الذى ينال بالتعب والكد ، ثم هناك الخبز الذى يغتصب قوة واقتداراً . فليس المهم أن يحصل العامل على ما يمسك به رقبته ، أو ما يضمن به بقاءه ، بل المهم أن يحسن العامل حالته بنفسه !

وإذا كان البعض قد حاول أن يفسر حركات العمال تفسيراً مادياً لا يعدو مجرد سيكولوجيا آلية ، فإن مثل هذا التفسير لا يمكن أن يكشف لنا عن الطابع الحقيقى لهذه الحركات . وليس يكفى من أجل تعليل ما يقوم به العمال من حركات فى سبيل الحصول على مستوى أفضل من المعيشة ، أن نقول إنهم فريسة لعقدة نقص ، وإنما يجب أن نحاول فهم الطابع الخلقى أو المدلول الإنسانى لحركاتهم . وسنرى عندئذ أن الحركات العالية إنما هى تأكيد للحرية الإنسانية ، وتقرير للقيم الروحية ، التى لا يمكن أن تكون منعدمة عند الطبقة العاملة ، مهما كان من مزاعم الطبقات الكبرى !

فليس من الممكن إذن أن تفسر الحركات العالية مجرد تفسير طبيعى آلى ، بل لا بد من فهمها على أنها تعبير عن قيم إنسانية عامة . والواقع أن كل حركة سياسية إنما تنطوى على طابع إنسانى ، يعنى خروج الفرد عن موقفه الذاتى الخاص ، من أجل الاشتغال بحركة عامة تمتد نحو الآخرين ، وتتجاوز الحاضر إلى المستقبل فالفرد الذى يشترك فى حركة عامة ، لا يعمل من أجل المحافظة على بقاءه ، أو تحسين أسلوب حياته ، وإنما هو يساهم فى حركة سياسية قد يضحي فيها بحياته الخاصة ، فى سبيل الوصول إلى شئ يعلو على وجوده الفردى ، وقد يكون تحقيقه رهناً بالمستقبل - ومعنى هذا أنه من الخطأ أن نهم بالمادية الوضيعة جماعة من الناس يجاهدون سويًا فى سبيل الوصول إلى مستوى أرقى من المعيشة : فإن كلا منهم إنما يعمل للآخرين ، ولا يرى إلى إرضاء حاجة مباشرة أو مطلب مادى ، بل هو يتجاوز سائر الحاجات الحيوانية ، لكى يقرر قيما إنسانية مشتركة .

والواقع أن قطعة الخبز كثيراً ما تكون هى نفسها الحياة ، بل قد تكون تقريراً لحق الحياة بالنسبة إلى الفرد والجماعة معاً ، فى الحاضر وفى المستقبل أيضاً . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن مستوى الحياة الذى يتطلبه العامل ليس مجرد صدى لحاجات مادية مباشرة ، وهو أيضاً ليس مجرد نتيجة لرغبة فى التعميـض ، بل هو

تعبير حى عن الفكرة التى يكونها العامل عن نفسه . فليس هدف العامل مجرد زيادة الأجور — من حيث هى كمية معينة من المال أو المادة ، بل هو هذه الزيادة — من حيث هى نتيجة لفعله الخاص ، وثمره لحركته الخاصة . ولهذا فإنه ليس بدعاً أن يضحي العامل بحياته نفسها ، مخاطراً بأعز ما يملك ، فى سبيل الوصول إلى مستوى أرقى من المعيشة ، يحصله بنفسه ، ويصل إليه بقدرته الخاصة . ومعنى هذا أن الحركات العمالية إنما هى تقرير لقدرة العامل ، وتأكيد لحيته الخاصة ، أعنى أنها تعبير عن معنى إنسانى . فالعامل الذى يقوم بمظاهرة مشتركة أو حركة إضراب عامة ، إنما يؤكد قدرته على تحسين حاله بنفسه . وهذا هو ما لم يفتن إليه هؤلاء الذين نظروا إلى حركات العمال نظرة سطحية ، دون أن يحاولوا فهم المدلول الإنسانى لهذه الحركات الإنسانية التى تعبر عن قيم روحية .

ولو أننا تأملنا سائر الحركات الثورية التى شهدناها التاريخ ، لرأينا أن قيمة هذه الحركات لا تنحصر فى نتائجها ، بل فى الحركة نفسها . فليس فى استطاعتنا أن نفهم أى ثورة إذا نظرنا فقط إلى ما ترتب عليها من نتائج ، بل لا بد من ربط نتيجة الثورة بالحركة الثورية نفسها . وليس من شك فى أن التأثير لا يمتد ببصره إلى ما يعقب الثورة ، بل هو يريد الثورة لذاتها ، ولا يرى من خلالها إلا إلى تقرير حريته الخاصة ، وتأكيد قدرته الذاتية . وإذا كنا نجد على مر العصور التاريخية سلسلة طويلة من الحروب والثورات التى قد تبدو فى الظاهر مجرد حركات عقيمة ، فإن من واجبنا ألا نحكم على هذه الحركات بما أفضت إليه من نتائج ، بل لا بد من النظر إليها فى ذاتها — فهذه الحركات لم تكن عقيمة ، لأنها لم تطلب فقط من أجل نتائجها ، بل هى قد كانت إلى حد كبير غاية فى ذاتها^(١) .

وإذا كان « خير » الإنسان لا يمكن أن يوهب له من الخارج ، فإن الإنسان إذن مضطر إلى أن يحصل خيره بنفسه ، فيستعمل حريته فى الحصول عليه أو الوصول إليه . ومن هنا فإن كل الحركات العمالية إنما هى تقرير للحرية الإنسانية وتأكيد للقيم الروحية ، لأن على العامل أن يحصل بنفسه ما يرى إليه من خير . وإذا كنا قد تبينا من قبل أن الخبز ليس هو الخبز دائماً ، فليس بدعاً أن يكون الخبز الذى تريده الطبقة العاملة ، إنما هو الخبز الذى تنتزعه بنفسها ، وتحصل عليه بقدرتها ، وتؤكد به فعلها الخاص . أما تلك الهيئات التى تريد أن تتصدق عليها

Simone de Beauvoir : "L'Existentialisme et la Sagesse des Nations." (١)
Nagel. Paris, 1948.. P. 80 — 81.

بلقمة العيش ، فإنها لن تنجح مطلقاً في أن تقضى على حركاتها التي قد يضحي فيها العامل بحياته من أجل شيء يفوق في قيمته الحياة نفسها ، ومعنى هذا أن الحركات العمالية لا يمكن أن تفسر تفسيراً آلياً مادياً ، بل لا بد من أجل تحليلها تعليلاً علمياً صحيحاً ، أن نعمل حساباً كبيراً للوجود الإنساني الذي لا يقوم بدون الحرية ، ولا يفهم إلا على ضوء القيم الروحية .

زكريا إبراهيم

السينما والجريمة

من واجب المجتمع نحو أفراد السهر على صحتهم النفسية كما يسهر على صحتهم الجسمية وذلك بمراقبة كل العوامل التي قد تحدث اضطراباً خلقياً في عقول الأطفال والشباب ، فعليه أن يراقب الصحافة وخاصة الصحافة الأسبوعية المصورة التي تنقل إلى عقول قرائها سمواً مستترة ومخدرات معنوية هدامة وجرائم خلقية فتاكة — وللأسف لا تقل بعض الصحافة العربية إباحية واستهتاراً عن زميلاتها في الخارج — كما أن على المجتمع أن يراقب الأفلام والمشاهد المسرحية وأن يشن حرباً لا رحمة فيها ضد تجار الفساد ورسل الجريمة .

وقد أجرى إحصاء في عام ١٩٣٨ عن نوع الأفلام التي عرضت في أربعين ألف صالة شهدها سبعون مليون من الأشخاص ٦٥ في المائة منهم من الأطفال والقصر . وتوزع موضوعات هذه الأفلام كالآتي :

- ٣٤٠ حالة سرقة مصحوبة باعتداء مسلح منها حالات قتل .
- ١٧٤ حالة تهديد بإفشاء أسرار تهدد الكرامة أو الشرف أو الاطمئنان الاجتماعي
- ٢٥٤ حالة إفساد قصر . ١٤٠٥ حالة زنى . ١٣٥٦ حالة سكر وعريضة .
- ١١٥٥ حالة اختطاف أشخاص .
- أى أكثر من ٤٧٠٠ جريمة يعاقب عليها القانون وتستنكرها الأخلاق الإنسانية ، هذا فضلاً عن ٧٤٥ حالة انتحار . والإحصائية الآتية تقدم لنا بيانات بليغة عن أثر الأوساط الخارجية في إفساد الأطفال من بنين وبنات :

بنات	بنين	
٦٨٪	٦٦,٣٪	أثر الشارع ورفاق السوء
١٠٪	٢٥,٣٪	أثر القراءات المثيرة للشهوة
٢٥٪	٣٤,٤٪	أثر السينما
١٦٪	١٧,٦٪	أثر صالات الرقص